من أسرار التعبير

بإن وأن

فى القرآن الكريم

اعـــداد

أ.د/ هاشم محمد هاشم

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقـــد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

إن المكسورة أكثر أدوات التأكيد وروداً فى القرآن الكريم، فقد وردت فيه أكثر من ألف وخمسمائة وستين مرة، سواء كانت مجردة من الضمائر، وحروف العطف، وما، أم كانت متصلة بها.

وأن المفتوحة أقل وروداً من إن المكسورة فقد وردت ثلاثمائة وستين مرة تقريبا[١]

وقد ذكر العلماء لأن ثلاثة معان:

أولا التأكيد:

وهو أصل معانيها، وأكثرها استخداماً فى القرآن الكريم، وجمهور النحويين، والبلاغيين، والمفسرين على أن (إنّ) و (أنّ) تفيدان التأكيد والتحقيق، قال الزمخشرى فى مفصله[٢]–وهو مفسر نحوى بلاغى :"إن وأن تؤكدان مضمون الجملة وتحققانه، وذكر أن (إن) حرف تحقيق مؤذن بثبات الأمر وتمكنه عند كلامه عن قوله تعالى ﴿ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٩٩]. وقال ابن يعيش[٣]: أما فائدةما فالتأكيد لمضمون الجملة، فإن قول القائل: إن زيداً قائم، قائم مقام تكرير الجملة مرتين، إلا أن قولك: إن زيداً قائم أو جز من قولك: زيد قائم زيد قائم مع حصول الغرض من التأكيد)

---

(١) انظر مصباح الإخوان، ص٣٩، ٤١، ٤٢

(٢) انظر المفصل، جـ٨ ص١٥٩ شرح ابن يعيش

(٣) انظر المفصل، جـ٨ ص١٥٩ شرح ابن يعيش

وجاء فى الأقصى القريب[١]: (ومعنى "إن" التحقيق وتوكيد الخبر المفهوم من اسمها وخبرها، وبمعنى "أن" كمعناها من التحقيق والتأكيد، والفرق بينهما أن "أن" واسمها وخبرها فى تأويل مصدر، وليست إن كذلك"

وهى للتأكيد عند عبد القاهر، ولذا لا يحتاج إليها إلا إذا كان الخبر مشكوكا فيه أو مظنوناً يقول[٢]:" ثم إن الأصل الذى ينبغى أن يكون عليه هو الذى دون فى الكتب من أنها للتأكيد، وإذا كان قد ثبت ذلك، فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن فى خلافه ألبته، ولا يكون قد عقد فى نفسه أن الذى تزعم أنه كائن غير كائن، وأن الذى تزعم أنه لم يكن كائن، فأنت لا تحتاج هناك إلى "إن" وإنما تحتاج إليها إذا كان له ظن فى الخلاف، وعقد قلب على نفى ما تثبت، أو إثبات ما تنفى، ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله فى الظن، ولشئ قد جرت عادة الناس بخلافه كقول أبى نواس.

عليك باليأس من الناس *** إن غنى نفسك فى اليأس

فقد ترى حسن موقعها، وكيف قبول النفس لها، وليس ذلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأس، ولا يدعون الرجاء والطمع ولا يعترف كل أحد، ولا يسلم أن الغنى فى اليأس، فلما كان كذلك كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد فلذلك كان من حسنها ما ترى.

---

(١) الأقصى القريب، ص٧

(٢) دلائل الإعجاز، ص٢٥٠

ونص على ذلك الطوى، وذكر أن التأكيد بـ "إن" المشددة آكد من التأكيد بـ"إن" المخففة[١]

وخلاصة القول أن "إن" فائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يتلقى بها القسم، وتصدر بها الأجوبة، وتذكر فى معرض الشك والإنكار. وقد جاءت إن فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مواطن كثيرة جدا منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦]. نزلت هذه الآية فى اليهود، أو المنافقين أو المشركين، والكل محتمل لما ضرب الله تعالى الأمثال فى كتابه العزيز بالعنكبوت والذباب، والتراب، والحجارة، والمستوقد، والصيب وغير ذلك مما يستحقر ويطرح، أنكر ذلك الجهلة وأهل العناد، واستغربوا ما ليس بمستغرب، وقالوا: إن الله أعظم وأعز من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقرات، فرد الله عليهم بهذه الآية مصدرة بأسلوب التأكيد، لأنها رد لإنكارهم، وفى الآية تأكيد آخر "بأن" فى قوله: ﴿ فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ وفى هذا تقرير وتثبت لعلم المؤمنين[٢] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] فأمام شدة إنكار المشركين إنزال القرآن من

---

(١) انظر الطراز، جـ٢ ص١٦٥

(٢) انظر فى ذلك كتب التفسير وبخاصة البحر المحيط جـ١ ص١٢٠

عند الله تعالى، اشتد التأكيد فصدرت الجملة الأولى بأداة التأكيد "إن" وأخبر عن ضمير الفخامة بالجملة الفعلية "نزلنا" التى أعيد فيها ضمير الفخامة فاعلا، وذلك يفيد التقوى بتكرار الإسناد، وهو من أهم الطرق لدفع الشك، ثم الإتيان بضمير الفخامة "نحن" فاصلا بين الضمير الذى ابتدى به، والجملة المخبر بها عنه. والجملة الثانية: نراها كذلك مبدوءة بضمير الفخامة "نا" مسبوقة بأداة التأكيد "إن" مخبرا عنه بالجمع المقصود به الواحد تفخيما يضاف إلى ذلك لام التأكيد وإسمية الجملة الدالة على الثبوت.

والغرض من هذا التأكيد المتتابع دفع الشكوك المحتملة من أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل والزبور، وهو بذلك يبث الاطمئنان فى نفوس المسلمين(١).

ويلاحظ كلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خف خف التأكيد، وإن توسط الاهتمام توسط التأكيد، قف معى عند قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ، لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ، وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤١-٤٧] نلاحظ عندما تكلم عن الإخلاص قال:" هذا صراط على مستقيم " جاء الأسلوب خاليا من التأكيد، لأن المقام مقام إخبار

---

(١) انظر: من أسرار التعبير فى القرآن، ص١٤٣

مطلق لا يحتاج إلى تأكيد، وعندما وجه الكلام إلى إبليس اللعين قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ جاء الأسلوب مؤكداً بـ "إن" ليؤكد له بأنه لا سلطان له عليهم، ولا تأثير ولا يملك أن يزين لهم، لأنهم فى حمى منه، جاء ذلك من إضافة العباد إلى الياء، إضافة تشريف وتكريم لهم، ثم جاء الاستثناء المنقطع ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، ولما وصل إلى الجزاء زاد فى التأكيد قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأدخل "إنَّ" واللام فى خبرها ليجزم له مؤكدا أنهم سيجتمعون فى دار جهنم خالدين فيها، ولعل من يسمع من أهل الفسق والفجور، وأنصار إبليس اللعين، يدخل فى نفوسهم الرعب والخوف والهلع والفزع بعد سماعهم الأسلوب مؤكدا بأكثر من مؤكد، ولما ذكر الغاوين ومصيرهم، ذكر المقابل، وهم المتقون وثوابهم، لأن من عادة القرآن إذا ذكر الفسقة أنصار إبليس، ذكر ما يقابلهم، وهم المؤمنون المتقون وثوابهم، وذكر ذلك مؤكدا "بإن" ليقرر ويرغب، ويدفع الشك الذى قد يعترى بعض الناس فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.﴾

قال سيد قطب رحمه الله[1]:" ولعل العيون فى الجنات تقابل فى المشهد تلك الأبواب فى جهنم، وهم يدخلون الجنات بسلام فى مقابل الخوف والفزع هناك، ونزعنا ما فى صدورهم من غل، فى مقابل الحقد الذى يغلى فى صدر إبليس فيما سلف من السياق، لا يمسهم فيها نصب ولا

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٤ ص٢١٤٢ دار الشروق.

يخافون منها خروجا، جزاء ما خافوا فى الأرض فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم".

وأن المفتوحة مثل إن المكسورة فى إفادة التوكيد كما ذكرت ومن ذلك أن الله -عز وجل- أكد لنوح- عليه السلام - أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن، فلا يحزن ولا ييأس عليهم، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود:٣٦] كما أكد -سبحانه- بأنه لم يكن مغيرا نعمة أنعم بها على خلقه، مبدلا لها بنقمة، حتى يغيروا ما بأنفسهم من النعم، بكفرها، وأكد أنه سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم فقال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣] والآيات المؤكدة فى القرآن الكريم بإن وأن كثيرة جدا، لكثرة الأمور التى تحتاج إلى التأكيد، وقد يغنى ذكر البعض فى هذا الموطن عن الكل.

ثانيا: التعليل:

من معانى "إن" المكسورة فى القرآن الكريم التعليل، وقد أثبت لها هذا المعنى كثير من النحويين والبلاغيين والمفسرين، نص الزركشى[١] والسيوطى[٢]، أنها للتعليل فى قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ

---

(١) البرهان، جـ٤ ص٢٢٩

(٢) الإتقان، جـ٢ ص٢٠٥

السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١] وكثير من الآيات التى يفهم من الجملة الأولى سؤال تأتى الجملة الثانية جوابا عنه، أو كالتعليل له، ويؤكد التعليل لتقوية مضمون الخبر وربطه بما قبله عن طريق الاستئناف البيانى، وهذا هو سر الفصل بينه، وبين ما قبله، والذى يطلق عليه البلاغيون "شبه كمال الاتصال" وهذا باب متسع فى القرآن الكريم، وسوف أتحدث عنه عند الكلام على أضرب الخبر.

وأما "أن" المفتوحة، فلم يثبت لها أحد هذا المعنى، بل قالوا: جاءت بمعنى لعل فى آية واحدة فى القرآن الكريم وهى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٩]، قالوا: أن هنا بمعنى لعل ونسبوا ذلك إلى الخليل عندما سأله سيبويه عن هذه الآية[١]، وقال الزمخشرى[٢]: وقيل: أنها بمعنى لعلها. من قول العرب: إئت السوق أنك تشترى لحما، وقال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا *** نبكى الديار كما بكى ابن خذام

وتقويها قراءة أبى " لعلها إذا جاءت لا يؤمنون ".

ثالثا: إن بمعنى نعم:

جاء فى لسان العرب: وقوله -عز وجل: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه:٦٣] أخبر أبو على أنا أبا اسحاق ذهب فيه إلى أن "إن" هنا بمعنى

---

(١) انظر كتاب، جـ١ ص٤٦٢، وشرح ابن يعيش، جـ٨ ص٧٩

(٢) انظر الكشاف، جـ٢ ص٤٤، وحاشية الشهاب جـ٤ ص١١٣

نعم، وهذان مرفوع بالابتداء، وأن اللام فى "لساحران" داخلة على غير ضرورة، وأن تقديرهم: نعم هذان ساحران.

ونسبوا ذلك إلى سيبويه، والأخفش، والمبرد.

وبعض النحويين قالوا: إنها بمعنى "ما" واللام بمعنى "إلا"(١)

والبلاغيون لم يتعرضوا لهذا المعنى ولم يذكروه -على حد علمى- وإن فى الآية تفيد التأكيد، ويفهم منها معنى الايجاب عند التشديد. وأرى أن الحق معهم ولا داعى للخلافات الكثيرة.

وأكثر هذه المعانى التأكيد وهو من أهم الطرق لتثبيت الفكرة فى نفوس الناس، وإقرار المعنى فى قلوبهم، وله تأثير كبير فى عقول الجماعات، حتى ينتهى المعنى بتأثير التأكيد إلى الإيمان به، قال عنه العلوى(٢):"اعلم أن التأكيد تمكين الشئ فى النفس، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ كثير الفوائد".

ولقد كثر هذا الأسلوب فى القرآن الكريم حتى أجمع جمهور الأمة على وقوعه فيه، لما اشتمل عليه من أسرار ولطائف، ولأن كثيرا من الأحكام الشرعية تحتاج إلى هذا التأكيد يقول عنه أبو السعود فى تفسيره(٣):" والتوكيد كثر سلوكه فى التنزيل المجيد، كيف لا، وكل ما

---

(١) الجنى الدانى، ص٣٩٨، ٣٣٩، ورصف المبانى فى حروف المعانى، ص٢٠٤، وهمع الهمع، جـ١ ص١٤١ وغيرها من كتب النحو ففيها الكثير.

(٢) الطراز، جـ٢ ص١٦٥

(٣) تفسير أبى السعود، جـ١ ص٥٨

ورد فى تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود، فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد.

ومما دعا إلى وجوده فى القرآن الكريم أن كثيرا من الناس يكرهون الحق، كما قال -عز وجل-: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، فالآية تفيد أن الأشرار الكارهين للحق كثرة، ولذا يحتاجون فى خطابهم إلى أسلوب مؤكد، فوقوع التأكيد فى القرآن الكريم لا مجال لإنكاره، لأن القرآن الكريم نزل على لسان القوم، وفى لسانهم التأكيدات والتكرار، وخطابه أكثر، بل هو عندهم معدود فى الفصاحة والبراعة، ومن أنكر وجوده[١] فهو مكابر إذ لولا وجوده لم يكن لتسميته تأكيدا فائدة، فإن الاسم لا يوضع إلا لمسمى معلوم"[٢]

عناصر التأكيد وأدواته:

عناصر التأكيد كثيرة، وأدواته متعددة قال عنها الدكتور محمد أبو موسى:"عناصر التأكيد وأدواته لا يمكن الإحاطة بها، وكذلك لا يمكن إحصاؤها، لأن كثيرا من طرق بناء الكلام تعطيه قوة ووكادة[٣]

أهمها:إن، وأن، وقد، والقسم، ولام الابتداء، وأحرف التنبيه وهى:

---

(١) أنكر بعض العلماء وجود التأكيدات فى القرآن والسنة، وقالوا: إنه لا فائدة فى ذكرها، وأن من حق البلاغة فى النظم إيجاز اللفظ، واستيفاء المعنى، وخير الكلام ما قل ودل ولا يمل، والإفادة خير من الأعادة، وظنوا أنه إنما يجيئ لقصور النفس عن تأدية المراد بغير تأكيد.

(٢) انظر البرهان الزركشى، جـ٢ ص٣٨٤

(٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، ص٣٤٥

[ألا، أما، ها، يا]، ونونا التوكيد،والحروف الزائدة مثل [من والبـــاء]، وأما الشرطية، والتكرار، وضمير الفصل، وأسمية الجملة، وكأن فـــى التشبيه وغير ذلك من الأدوات. والذى يهمنا هنا هو إن، وأن، وهمـــا أكثر الأدوات استعمالا.

والحديث عن التأكيد يجرنا إلى الكلام عن أضرب الخبر كى نعرف متى يوكد الكلام ومتى يجرد من التأكيد؟.

أضرب الخبر:

من مزايا اللغة العربية دقة التعبير، واختلاف الاساليب يتنوع الأغراض والمقاصد، ومن هنا "كان للجملة الخبرية معنى يحدده تركيبـــها، فـــإذا أطلقت خالية من أى تأكيد كانت لها دلالة، وإذا أكدت بمؤكد واحـــد أو أكثر من مؤكد كانت لها دلالة أخرى. (١)

وقد تنبه البلاغيون إلى هذا فقسموا الخبر حسب حالات المخاطب إلـــى ثلاثة أضرب: ابتدائى، وطلبى، وإنكازى، ووضعوا لكل واحد من هـــذه الأضرب مفهوما ومخاطبا يخاطب به، وأيضا عبارة يؤدى بها. ويعـــد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أول من أشار إلى هذه الأضرب فـــى جوابه عن السرال الذى وجهه إليـــه يعقـــوب بـــن إســـحاق الكنـــدى المتفلسف، قال عبد القاهر(٢):"روى عن ابن الأنبارى أنه قال:" ركـــب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس وقال له: إنى أجد فى كـــلام العـــرب

---

(١) أساليب بلاغية، ص٩٠

(٢) دلائل الإعجاز ص٢٤٢، تحقيق رشيد رضا

حشوا، فقال له أبو العباس: فى أى موضع وجدت ذلك ؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون:إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة، والمعنى واحد فقال أبو العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الالفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم: جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى".

ومن هنا نعلم أن العرب لاحظت أن يكون الكلام بمقدار الحاجة، لا زائدا عليها وإلا كان عبثا، ولا ناقصا وإلا أخل بالغرض، وهو الإفصاح والبيان ونعلم أيضا أن المخاطب لا يخلو من أن يكون من ثلاثة.

١-خالى الذهن من الحكم، ومن التردد فيه، وعندئذ يلقى إليه الكلام خاليا من أدوات التأكيد كقوله تعالى: ﴿ المَالُ وَ البَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف:٤٦] فالمخاطب خالى الذهن، وغير متردد، ولا ينكر أن "المال والبنون" زينة الحياة الدنيا لذلك جاءت الآية خالية من التوكيد، ومن ذلك قوله تعالى﴿: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم:١٠] هذا مثل ضربه الله تعالى لامرأتين كافرتين خائنتين لزوجين مؤمنين صالحين نبيين هما نوح ولوط، والخيانة هنا ليست الزنا، لأن زوجات الأنبياء لا يقعن فى هذه الجريمة، وخيانة امرأة نوح أنها كانت تقول عنه: إنه مجنون، وخيانة امرأة لوط أنها كانت تخبر

قومها عن ضيوفه، أو غير ذلك من الخيانات غير جريمة الزنا، والمخاطب هنا خالى الذهن من الحكم بمعنى أنه لم يسبق له علم بمضمون الخبر، وخلو الذهن من الشئ يوجب استقراره فيه من غير حاجة إلى تأكيد، ومن ذلك قوله تعالى﴿: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فالله سبحانه يقرر فى الآية حقيقة يجهلها المخاطبون هى اقتراب الساعة، وانشقاق القمر، والمخاطبون ليسوا مترددين ولا منكرين لذا جاءت الآية خالية من التأكيد. وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم، ويسمى هذا الضرب ابتدائيا وهو الضرب الأول.

٢-مترددا فى ثبوت الحكم وعدمه، سواء ترجع أحدهما على الآخر أو استويا عنده، وحينئذ يحسن تقوية الحكم بمؤكد واحد، لأن المتردد فى الشئ عادة يكون متشوقا إليه، طالبا وقوفه على حقيقة أمره، ليزول تردده، ويتمكن الحكم من نفسه، يقول الدكتور محمد أبو موسى[١]:"وقد لحظ البلاغيون أن وجود التردد فى النفس يقتضى هذا الضرب من الصياغة المؤكدة، ولو كان الخبر على وفق ظن المخاطب، فأنت تقول: إنه صواب للمتردد الذى يميل إلى أنه صواب، وليس فقط للمتردد الذى يميل إلى أنه ليس بصواب، وسبب التأكيد بالنسبة إلى الثانى ظاهر، أما بالنسبة إلى الأول، فإنه لوحظ أن النفس حين تتردد تصير فى حاجة إلى قدر من التوثيق وإن كان الحكم على وفق ظنها، لأن ما تظنه وتميل إليه هى أيضا فى حاجة إلى توكيده، وهذا ملحظ نفسى دقيق"

---

(١) خصائص التراكيب، ص٤٨

والتأكيد مستحسن للمتردد مطلقا سواء استوى لديه طرفا الإثبات والنفى أو كان يرجح أحدهما على الآخر، وهذا هو مذهب الجمهور، لكن الذى يفهم من كلام عبد القاهر فى دلائل الاعجاز، وإليه مال السعد فى المطول -كلامهم فى التأكيد بإن: أن شرط هذا التأكيد أن يكون للسائل ظن على خلاف ما أنت تجيبه، فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا، لأنه يؤدى إلى أن يستقيم لنا أن نقول:"صالح" فى جواب، كيف زيد؟ وفى الدار، فى جواب أين زيد؟ حتى نقول: إنه صالح، وإنه فى الدار، وهذا مما لا قائل به[1]

ويكثر هذا النوع إذا كانت الجملة جوابا عن سؤال سواء كان صريحا أو مفهوما من الكلام السابق كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف:٨٣-٨٤] الضمير فى "يسألونك" أعائد على قريش، أو على اليهود ؟ والمشهور، أن السائلين قريش حين دستها اليهود على سؤاله عن الروح، والرجل الطواف، وفتية ذهبوا فى الدهر، ليقع امتحانه بذلك، وذو القرنين، هو الاسكندر الأكبر على المشهور[2] "قل سأتلوا عليكم منه ذكرا" أى سأذكر لكم من بعض

---

(١) انظر دلائل الاعجاز، ص٢٥١، والمطول ص٥٨

(٢) وقيل:إنه الملك الفارس الصالح"قورش" وقد رد العالم الكبير أبو الكلام أزاد وزير معارف الهند سابقا بقوة القول بأنه الإسكندر المقدونى، وحقق أنه "قورش" انظر المصحف المفسر للشيخ عبد الجليل عيسى، ص٣٩٢. طبع دار الشروق.

أخباره قرآنا تعلمون منه حاله، فالمراد بالذكر القـــرآن، ويحتمـــل أن يكون حديثا، أى تعبيرا من عند الرسول (ﷺ) ويؤيد الأول قوله تعالى:" إنا مكنا له فى الأرض" إذ هو شروع فى تلاوة الذكر المعهود حســـبما هو الموعود..، والتمكين الذى له فى الأرض كونه ملك الدنيا، ودانـــت له الملوك كلها.. وقيل غير ذلك[1]

فالآية قدمت سؤالا للرسول ﷺ عن ذى القرنين، والسائلون يعلمـــون شيئا، ولكنهم غير جازمين به لذا أكدت الآية بتوكيد واحد

ومنه قوله تعالى﴿: فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٦]

فالمخاطبون، وهم أبناء يعقوب كانوا مترددين شاكين إذ أن أباهم كـــان قد طلب منهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه فى مصر، وكذلك أخبرهم حينما كان قميص يوسف فى الطريق قبل أن يصل إليه، أخبرهم أنـــه يجد ريح يوسف، ومع ذلك لم يصدقوه تصديقا كاملا، بل كانوا يشكون فى وجود أخيهم يوسف، ولم يجزموا -فى قـــرارة أنفســـهم- بمـــوت يوسف، فجاءت الآية مؤكدة بتأكيد واحد.

ومنه قوله تعالى، حكاية عن فرعون وهو يهدد الســـحرة﴿: لأُقَطِّعَـــنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ، قَالُوا إِنَّا إِلَـــى رَبِّنَـــا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف ١٢٤-١٢٥].

"قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون" استئناف مسوق للجواب عن سؤال مفهوم

---

(١) انظر كتب التفسير

من الكلام السابق كأنه قيل: ماذا قال السحرة عندما سمعوا وعيد فرعون، هل تأثروا به، أو ظلوا ثابتين على إيمانهم ؟ فقيل: قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان "إنا إلى ربنا منقلبون" أى بالموت لا محالة، وهذا هو سر الفصل بين هذه الجملة والتى قبلها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣].

"إنهم فتية " استئناف حقيقى مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب جاء هذا جوابا عنه، ولذا أكد بإن، وهذا كثير فى القرآن الكريم وسوف أذكر شيئا منه عندما أتحدث عن تنزيل غير السائل منزلة السائل.

ويسمى هذا الضرب طلبيا. وهو الضرب الثانى.

٣-منكراً للحكم، وهذا يجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفا، وذاك أن المتكلم أحوج ما يكون إلى الزيادة فى تثبيت خبره إذا كان هناك من ينكره، ويدفع صحته فهو إذن يبالغ فى تأكيده حتى يزيل إنكاره تقول لمن ينكر رسالة محمد ﷺ إن محمدا رسول الله، فإن أصر على إنكاره زدته وأدخلت اللام وقلت إن محمدا لرسول الله، وفى هذه الحالة ازداد معنى التأكيد، وكان بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات، وهذا الايجاز أو الاقتصاد فى ألفاظ الجملة مع حصول الغرض من التأكيد هو الذى يعطى مثل هذه الجملة قيمتها البلاغية، على أساس أن البلاغة هى الايجاز. يقول عبد القاهر[1]: وأما جعلها إذا جمع بينها

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٥١، ٢٥٢

وبين الكلام نحو: إن عبد الله لقائم. للكلام مع المنكر فجيد، لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد، وذلك أنك أحوج ما تكون إلى الزيادة فى تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه، وينكر صحته إلا أنه ينبغى أن يعلم أنه كما يكون للإنكار قد كان من السامع، فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى من السامعين.

وجملة الأمر أنك تقول:" إنه لكذلك" حتى تريد أن تضع كلامك وضع من يزع فيه الإنكار.

ومن هذا النوع -الإنكارى.. قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف:١١-١٤] حوار بين يعقوب وأبنائه -عليهم السلام- يطلبون يوسف للتنزه، والنوايا سيئة، والأب بإحساس الأبوة والنبوة معا يرفض إرسال يوسف معهم، ويبدأون حديثهم بلفظ الأبوة "يا أبانا" الموحى بالحب والعطف والحنان والإخلاص بين الأب وأبنائه، ثم يسألون سؤالا فيه استنكار وعتب وتعجب لعدم إرسال يوسف معهم "مالك لا تأمنا على يوسف"، ثم يؤكدون النصح والإخلاص "وإنا له لناصحون" ثم يزيدون التأكيد تأكيداً مع ذكر ما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة، واللعب مما يحث والده لإرساله معهم مع التأكيد بأنهم سيحافظون عليه فلا تخف "أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون" ولكن يعقوب -عليه السلام- يرفض ويعلل عدم إرساله بقلة

صبره على فراقه، وخوفه عليه من الذئاب "إنى ليحزننى أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون" وهنا يزداد الحقد والكراهية، ويجدون فى كلام أبيهم الحجة التى يبحثون عنها بعد فعلتهم المنكرة، وكأن أباهم لقنهم العذر، ووجدوا فى كلامه الجواب الذى يبحثون عنه، ولذا أصروا على أخذ يوسف، وأتوا بأسلوب موثق بعدة تأكيدات "قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون" لئن غلبنا الذئب عليه "ونحن عصبة" وانظر إلى ما توحى به كلمة "عصبة" من اتحاد وقوة، فلا خير فينا، وإننا لخاسرون كل شئ والكلام هنا مؤكد بالقسم، وإن، واللام، وإسمية الجملة، حتى يصلون إلى غرضهم الذى يسعون إليه.

والمخاطب يعقوب -عليه السلام- وهو يرفض وينكر إرسال يوسف معهم، فجاء الأسلوب مؤكدا له بأكثر من مؤكد، وبهذا يكون جاء الكلام مطابقا لمقتضى حال المخاطب فهو فى قمة البلاغة.

وأرى أن الكلام هنا جاء أيضا مطابقا لمقتضى حال المتكلمين -أبناء يعقوب -وراعى الحالة النفسية التى كانوا عليها، لأنهم يقولون خلاف ما يبطنون، والتأكيد، وإن كان الغالب والكثير فيه مراعاة حال المخاطب، لا مانع أن يكون معبرا عن نفسية المتكلم، وهذه ليست منفصلة عن تلك، ولذا يقال: كاد المريب أن يقول: خذونى، ومجئ الأسلوب مطابقا لحال المتكلم كثير فى القرآن الكريم.

ومن الآيات المعلومة فى ذلك ما قصه الله -عز وجل- حكاية عن رسل عيسى -عليه السلام- حين بعثهم إلى أهل أنطاكية، قال

تعالى﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣-١٦]

حيث قالوا فى المرة الأولى:"إنا إليكم مرسلون" ومؤكدا بإن وإسمية الجملة وفى الثانية "ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون" مؤكدا بإن، وإسمية الجملة واللام فى قوله "لمرسلون" والقسم المفهوم من قوله:"ربنا يعلم" لأن هذه العبارة مثلها "ربنا يشهد" ونحوهما فى قوة القسم، وذلك أن حال المخاطبين بخطاب الرسل كانت أولا تكذيبا لم يؤيده بدليل، وأما الحالة الثانية فكانت تكذيبا على سبيل الكناية التى هى كدعوى الشئ بلا دليل؟ أى لستم رسلا،لأنكم بشر،والرسول لا يكون من البشر،إلى ما ضموه إلى ذلك من نفى الرسالات عامة،وتكذيبهم الصريح على سبيل القصر والتخصيص مما يضاعف من أمر تكذيبهم وإنكارهم كما وكيفا.

ويسمى هذا الضرب إنكارا وهو الضرب الثالث.

والجرى على هذا النحو فى الخطاب، أعنى خلو الكلام من التأكيدات لخالى الذهن واستحسان التأكيد بمؤكد واحد للسائل المتردد، ووجوبه للمنكر بحسب درجة الإنكار قوة وضعفا، يسمى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر، ولكن إيراد الكلام، أو الخبر لا يكون دائما وأبدا جاريا على مقتضى الظاهر، فقد تجد اعتبارات تدعو المتكلم إلى أن يورد الكلام على صورة تخالف الظاهر أو على صورة تخرج به عن مقتضى

الظاهر، وهذا باب دقيق المسلك، لا يهتدى إليه إلا ذكى النفس يقول عنه السكاكى[١] "وهذا النوع أعنى نفث الكلام لا على مقتضى الظاهر متى وقع عند النظار موقعه استهش الأنفس، وأنق الأسماع، وهز القرائح، ونشط الأذهان، ولأمر ما تجد أرباب البلاغة، وفرسان الطواد فى ميدانها الرامية فى حدق البيان يستكثرون من هذا الفن فى محاوراتهم.. وهذا الفن فن لا تلين عريكته، ولا تنقاد قرونته بمجرد استقراء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها، وإتعاب النفس بتكرارها، واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها، بل لابد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، مع فضل إلهى من سلامة فطرة، واستقامة طبيعة، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة،وعقل وافر.ومن الاعتبارات التى يلحظها المتكلم،وتدعوه إلى الخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر ما يلى:

١-تنزيل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر[٢]، ويشير إليه إشارة يفطن لها المخاطب الذكى، فيصير بسبب ذلك متطلعا إليه مترقبا له ترقب المتردد فى الحكم "ومن ذلك الجمل المؤكدة فى الكلام الفصيح. والواقعة عقب الأمر والنهى، أو الإشارة والتوجيه[٣]" كقوله تعالى، خطابا لنوح -عليه السلام-﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي

---

(١) انظر مفتاح العلوم، ص٨٢

(٢) جاء فى تجريد العلامة البنانى، جـ١ ص١٦٤:"هذا الاشتراط بالنظر إلى ما هو الشائع فى الاستعمال، ولا يمتنع أن يقع ذلك بسبب غير التلويح كالاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعدا، أو التنبيه على غفلة السامع"

(٣) انظر خصائص التراكيب، ص٥١

فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧] أى لا تدعنى يا نوح فى شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك.

فنوح –عليه السلام– خالى الذهن عن الحكم الخاص بالظالمين، وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليه الخبر غير مؤكد، لكن لما قدم له ما يلوح بجنس الخبر، وهو نهيه عن مخاطبته فى شأن هؤلاء القوم بالإضافة إلى ما سبق من قوله تعالى:"وأصنع الفلك "[1] فهم نوح من هذا أن القوم محكوم عليهم بهلاك لا سبيل إلى رده، فصار متطلعا إلى ما سيحل بهم، مترقبا له، فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم هل صاروا محكوماً عليهم بالإغراق أولا؟ ويطلبه فنزل منزلة الطالب وقيل:"إنهم مغرقون" مؤكدا، أى محكوم عليهم بالإغراق، فخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

ويلاحظ أن "إن" هنا أفادت بجانب التأكيد، والربط بين الجملتين، التعليل وذكر الشئ معللا أبلغ من ذكره بلا علة، لأن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها، وغالب التعليل فى القرآن الكريم مبنى

---

(١) إذا نظر إلى "ولا تخاطبنى" فقط كان هناك إشارة إلى جنس الخبر، وإذا نظرنا إليه مع "واصنع الفلك" كان هناك إشارة خصوص الخبر، لا يقال فى قوله "واصنع الفلك" دلالة ظاهرة على إغراقهم لا تلويح له، فالمقام مقام علم إغراقهم، لا التردد فيه، لأن المراد بالتلويح ما قابل التصريح، وقوله "واصنع الفلك " ليس صريحا فى إغراقهم، لأنه يحتمل أن يكون الفلك لأمر آخر غير عموم الماء الموجب لإغراقهم، وأن يكون ذلك على سبيل التهديد، فقوله "واصنع الفلك " لا يوجب علم إغراقهم، انظر تجريد العلامة البنانى،جـ١ ص١٦٥

على تقدير جواب سؤال اقتضته الجمله الأولى، وهو سؤال عن العلة[١]

وهذا هو سر الفصل بين الجملتين، وهو ما يعرف فى البلاغة "بشبه كمال الاتصال".

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧-١٩].

المخاطب بالآيات ابن لقمان، وهو خالى الذهن من الحكم الذى تضمنه الخبر وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليه الكلام خاليا من التأكيد، ولكن لما تقدم له ما يلوح بجنس الخبر، وهو "واصبر ما أصابك" فى الآية الأولى "ولا تمش فى الأرض مرحاً" فى الآية الثانية " واغضض من صوتك" فى الآية الثالثة، نزل منزلة السائل المتردد فجاء الأسلوب مؤكدا. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر، و ما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه،إشارة إلى بعد منزلته في الفضل

و الجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الأمر و النهي،و أكد التعليل لتقوية مضمون الخبر،و ربطه بما قبله عن طريق الاستئناف البياني المؤكد،و هذا هو سر الفصل.

---

(١) انظر البرهان، جـ٣ ص٩١

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تولهم شق و جهك كفعل المتكبر،فالجملة كناية عن عدم التكبر و الإعجاب،و مثلها قوله:﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً.﴾ ولما أمره بقيام الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،ونهاه عن التكبر على الناس والإعجاب، أخبر أنه لا يحب المتكبر، فقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ تعليل للنهي، أو موجبه،وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصغر خده عن المختال، وهو بمقابلة الماشي مرحا لرعاية الفاصلة،وتأكيد التعليل جاء لتقوية مضمون الخبر وربطه بما قبله عن طريق الاستئناف البياني.

وكما نهاه عن الخلق الذميم، أمره بالخلق الكريم، وهو الاعتدال في المشي، والغض من الصوت، فقال تعالى:﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وقد كانت العرب تفتخر بجهرة الصوت، فرد الله عليهم بأنه لو كان خيرا لفضل به الحمير ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبني على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق،وإفراط التحذير عن رفع الصوت، والتنفير عنه، ولذا جاءت اللام في خبر "إن" لزيادة التأكيد والاهتمام.

وهذه الجمل الواقعة عقب الأمر والنهى، أو الإرشاد والتوجيه وفصلت عن سابقتها للإستئناف البيانى، وجاءت مؤكدة جاءت على النهج الأبلغ فى الجمل المستأنفة التى تعلل كلاماً سابقا، وتجيب عن سؤال مقدر فيه على سبيل تنزيل غير السائل منزلة السائل، لتقدم ما يستدعى سؤالا، وهى فى القرآن الكريم كثيرة جداً قال عنها عبد القاهر:"وهى

على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء"[١]

و"إنَّ" فى مثل هذه المواقع بجانب إفادتها التأكيد والتعليل تربط بين الجملتين برباط قوى بحيث لا يستقيم الكلام بدونها، ولا يصلح غيرها من أدوات الربط مكانها، فهى تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف، ومقطوعاً موصولاً..وترى الجملة إذا هى دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغاً واحدا، وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر حتى لو أسقطها فى مثل ذلك رأيت الثانى منهما قد نبأ عن الأول، وتجافى عن معناه، ورأيته لا يتصل به، ولا يكون منه بسبيل حتى يجئ بالفاء، ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة، ولا ترد عليك الذى كنت تجد بإن من المعنى.[٢]

وبهذا يتضح لنا مكانة "إنَّ" وبلاغتها فى هذا النوع من الكلام، وإذا أسقطت اختل الأسلوب، وضاعت مكانته البلاغية التى يحتلها إلا إذا وضعت الفاء مكانها، بيد أنه لا تصلح الفاء فى كل موضع تصلح فيه "إنَّ" يقول الزركشى[٣] :"واعلم أن كل جملة صدرت بإن مفيدة للتعليل، وجواب سؤال مقدر، فإن الفاء يصح أن تقوم فيها مقام "إنَّ" مفيدة

---

(١) الدلائل، ص٢٤٤، وإن شئت فانظر كتاب: دراسات لأسلوب القرآن، جـ١ ص٤٩٦-٤٩٨

(٢) انظر دلائل الاعجاز، ص٢٤٣

(٣) البرهان، جـ٢ ص٤٠٦، ٤٠٧

للتعليل حسن تجريدها عن كونها جوابا للسؤال.

أما إذا كانت الجملة التى تصدرتها إن لم تذكر لفائدة ما قبلها فإنه لا يمكن وضع الفاء بدلا عن "إنَّ" عند إسقاطها.

وقد سبقه عبد القاهر فى هذا المعنى عندما قال[١] :"واعلم أن الذى قلنا فى "إنَّ" من أنها تدخل على الجملة من شأنها إذا هى أسقطت منها أن يحتاج فيها إلى الفاء، لا يطرد فى كل موضع، بل يكون فى موضع دون موضع، وفى حال دون حال فإنك قد تراها قد دخلت على الجملة ليست مما يقتضى الفاء، وذلك فيما لا يحصى كقوله تعالى﴿: إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢]

وذاك أن قبله﴿: إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[الدخان:٥٠] ومعلوم أنك لو قلت:إن هذا ما كنتم به تمترون فالمتقون فى جنات وعيون لم يكن كلاما[٢]

ومن الآيات التى لا يصح فيها وضع الفاء مكان "إنَّ" قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٠-١٠١] لأنك لو قلت: لهم فيها زفير، وهم فيها لا يسمعون، "فالذين سبقت لهم منا الحسنى" لم تجد لإدخالك الفاء فيه وجها، لأنه لا يصح العطف، بل يجب الفصل، لأن ما قبل الآية حديث

---

(١) الدلائل، ص٢٤٨

(٢) لا يجوز هنا الفاء، لأنه لا يصح العطف، بل يجب الفصل، لأن الآية الأولى حديث عن أبى جهل والمشركين وما ينالهم من عقاب شديد، وهذا حديث عن المؤمنين وما يتمتعون به من نعيم فبينهما تباين تام، وهذا ما يطلق عليه كمال الانقطاع.

عن الكافرين، وما يلقون من عذاب، ثم شرع فى بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة حسبما جرت سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد، وإيراد الترغيب مع الترهيب.

ومن الآيات التى لا تصح فيها الفاء قوله تعالى﴿: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج:١٧]

"الذين آمنوا" اسم "إنَّ" وما بعده معطوف عليه، وقوله "إن الله يفصل بينهم يوم القيامة "جملة فى موضع الخبر، ودخول الفاء فيها محال، لأن الخبر لا يعطف على المبتدأ، وتصدير طرفى الجملتين بحرفى التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد، أى يقضى بين المؤمنين، وبين الفوق الخمس المتفقة على ملة الكفر، بإظهار المحق من المبطل، وتوفيه كل منهما حقه من الجزاء بإثابة الأول، وعقاب الثانى، بحسب استحقاق أفراد كل منهما، وقوله تعالى:"إن الله على كل شئ شهيد" تعليل لما قبله من الفصل، أى عالم بكل شئ من الأشياء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة، وإجراء جزائه اللائق به عليه(١)

وهذا النوع من الكلام –أعنى تنزيل غير السائل منزلة السائل المتردد، لأنه قدم لعه ما يلوح بحكم الخبر–قال عنه الخطيب القزوينى:"وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض، روى عن الأصمعى

قال:كان أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويكتبان عنه متواضعين له حتى وقت الزوال، ثم ينصرفان، فأتياه يوماً، فقالا، ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى سلم بن قتيبة؟ قال: هى التى بلغتكما، قالا، بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف، قالا: فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما:

بكراً صاحبى قبل الهجير *** إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان -إن ذاك النجاح، بكرا فالنجاح، كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكراً فالنجاح، كان من كلام المولدين، ولا يدخل فى معنى القصيدة، قال: فقام خلف فقبل بين عينيه، فهل كان ما جرى بين خلف، وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء وهم من فحولة هذا الفن إلا للطف المعنى وخفائه[٢]

٢-تنزيل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره،لأنه ليس له دليل عليه،ولو أنصف،ونظر نظرة متأنية لعدل عن الإنكار وهو مثل سابقه لا

---

(١) انظر كتب التفسير وبخاصة تفسير أبى السعود، جـ٥ ص١٠٠

(٢) بغية الإيضاح، جـ١ ص٤٨، ٤٩ وانظر القصة والتعليق عليها فى دلائل الاعجاز ،ص ٢١١

يهتدى إليه إلا بصير بسياسة الكلام،وهو منحصر فى صورتين:

(أ)أن ينزل منزلة خالى الذهن، إذا كان معه من الدلائل والشواهد على صدق الخبر ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره كما يقال لمنكر الإسلام: الإسلام حق إيماء إلى أن الأدلة المزيلة لجحوده وإنكاره قد تناهت فى الظهور والوضوح حتى كأن الانكار معها كالعدم فلا يلتفت إلى مقتضاه، وفى ذلك من توهين الخصم مالا يخفى، وكقوله تعالى:خطابا للكافرين الذين ينكرون وحدانية الله ويعتقدون تعدد الآلهة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣] من غير تأكيد وكان مقتضى الظاهر أن يلقى إليهم الكلام مؤكدا، لأنهم منكرون، ولكنهم نزلوا منزلة خالى الذهن، لأن بين أيديهم من الأدلة على وحدانية الله، مالو نظروا فيها نظرة عادلة، وأزالوا تلك الغشاوة من عيونهم، والتفتوا إلى ما يحيط بهم من الآثار، لأذعنوا وأقلعوا عن جحودهم، فإنكارهم إذا مع قيام الأدلة الواضحة كلا إنكار، لهذا لم يقم الله لهذا الإنكار وزناً يعتد به فى توجيه الخطاب، وكقوله تعالى فى شأن القرآن الكريم﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]

هذا الحكم ينكره كثير من سامعيه وهم الكفار، لأنهم ينكرون انتفاء الريب عن القرآن، بل ينكرون كونه من عند الله، فكان مقتضى الظاهر مراعاة لحالهم أنه قال لهم: إنه لا ريب فيه، لكن ترك هذا الظاهر، وجاء الكلام خاليا من التأكيد، ونزلوا منزلة خالى الذهن، لأن معهم من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ما يجعلهم إذا تأملوا ارتدعوا عن الشك والريب لذا نزلهم منزلة خالى الذهن، وخاطبهم بكلام خال من

التأكيد تنزيلا للشئ منزلة عدمه جاء فى المطول[١]: قال صاحب الكشاف: إنه ما نفى الريب بمعنى أن أحداً لا يرتاب فيه، بل بمعنى أنه ليس محلا لوقوع الريب فيه، لأنه من وضوح الدلالة، وسطوع البرهان. بحيث لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه، فكأنه قيل: هو مما لا ينبغى أن يرتاب فى أنه من عند الله، وهذا حكم صحيح، لكن ينكره كثير من الاشقياء، فينبغى أن يؤكد لكن ترك تأكيده، لأنهم جعلوا كغير المنكر لما معهم من الدلائل المزيلة لهذا الانكار لو تأملوها، وهو أنه كلام معجز أتى به من دل على نبوته بالمعجزات الباهرة. ومن ذلك قوله تعالى﴿: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]

فاليهود -لعنة الله عليهم- ينكرون أن الله واسع العطاء، كريم يفيض على خلقه بنعمه الكثيرة، ويقولون مقالة شنيعة "يد الله مغلولة" ومع هذا الإنكار جاء الرد عليهم خاليا من التأكيد "بل يداه مبسوطتان" لأنه نزلهم منزلة خالى الذهن لأن الكون ملئ بالأدلة الظاهرة الواضحة الدالة على كثرة عطائه وكرمه وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم، وخاصة الآيات التى تتحدث عن الوحدانية وعن الخلق، والبعث، والجنة والنار، وجاءت خالية من التأكيد، علما بأن كثيرا من المخاطبين منكرون للحكم، ولكن القرآن الكريم نزل إنكارهم منزلة العدم، لأن معهم من الأدلة، والشواهد الواضحة ما إن تأملوه ارتدعوا عن إنكارهم.

---

(١) المطول، ص٥٠، ٥١ وانظر الكشاف، جـ١ ص١١٢

(ب)أن ينزل المنكر منزلة السائل المتردد إذا كان معه من الأدلة ما هو جدير بأن يضعف أسباب الإنكار، من ذلك قوله تعالى﴿: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٦]، فالكافرون ينكرون البعث إنكارا شديدا، فكان مقتضى الظاهر أن يؤكد لهم الكلام بأكثر من مؤكد إلا أن البعث لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا إلا ينكر، فنزل المخاطب منزلة السائل المتردد حثا له على النظر فى أدلته.

قال الخطيب القزوينى:[1] "وأكد إثبات البعث تأكيداً واحدا -وإن كان مما ينكر- لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته، وحثا على النظر فيها، ولهذا جاءت تبعثون على الأصل". و مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة:١٧٦) المخاطب بهذه الآية الكفار الذين ينكرون أن القرآن حق، وأنه من عند الله، فكان مقتضى الظاهر أن يؤكد لهم الكلام بأكثر من مؤكد، ولكن لوجود الأدلة الواضحة على أن القرآن حق وأنه من عند الله نزلهم منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته، وحثا على النظر فيها، والذي يقرأ القرآن بتأمل يجد كثيرا من هذه الآيات.

٣-وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا لاح على المخاطب شئ من أمارات الإنكار فينبغي حينئذ أن يؤكد له الكلام حتى يقتنع بما يلقيه عليه المتكلم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

---

(١) بغية الإيضاح، جـ١ ص٥١.

فالمخاطبون بهذه الآية الكريمة لا ينكرون الموت، لأن الموت لا ينكره أحد، فكل إنسان على يقين من موته، وأن أحدا لن يخلد على هذه الأرض، مهما طال أجله، فإن مصيره إلى الموت والفناء، وعلى ما يقتضيه ظاهر الكلام، كانيجب أن يلقي الكلام إليهم خاليا من التأكيد، ولكن الكلام قد خرج عن مقتضى الظاهر، وألقى إليهم مؤكدا، فما السبب في ذلك؟.

السبب هو ظهور أمارات الإنكار عليهم، فإن نسيانهم للموت وتكالبهم على مطالب العيش فكأنهم مخلدون، وعدم بذلهم في الحياة الدنيا ما ينفعهم في الآخرة، كل هذه بوادر منهم تدل على إنكارهم لحقيقة الموت، ومن أجل ذلك نزلوا منزلة المنكرين، وألقى إليهم الكلام مؤكدا "بإن" ولام الابتداء، وإسمية الجملة. قال أبو حيان [1]:"فإن قلت: الموت مقطوع به عند كل أحد، والبعث قد أنكرته طوائف،واستبعدته، وإن كان مقطوعا من جهة الدليل لإمكانه في نفسه، ومجئ السمع به، فوجب القطع به، فما بال جملة الموت جاءت مؤكدة، بأن، واللام، ولم تؤكد جملة البعث إلا بإن ؟ فالجواب: أنه بولغ في تأكيد ذلك تنبيها للإنسان على أن يكون الموت نصب عينيه، ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه، فكأنه أكد جملته ثلاث مرات لهذا المعنى، لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي ويؤكد، ويجمع حتى كأنه مخلدا فيها،فنبه بذكر الموت مؤكدا مبالغا فيه ليقتصر ويعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار

---

(١) بغية الإيضاح، جـ١ ص٥١.

البقاء، ولم تؤكد جملة البعث إلا بإن ؛ لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع، ولا يقبل فيه إنكار وإنه حتم لابد من كيانه، فلم يحتج إلى توكيد ثان".

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل آية: (١١٠)]

فالمخاطب بالآية المؤمنون، وهم لا ينكرون غفران الله ورحمته، ولكنهم فتنوا في دينهم، وتخوفوا من عقاب الله، وصاروا كأنهم ينكرون غفران الله لذنوبهم، فنزلوا منزلة المنكرين، فأكد لهم الكلام بإن، واللام، وإسمية الجملة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر:٥٣) المخاطب بالآية المؤمنون، وهم لا ينكرون غفران الله ورحمته، ولكنهم لما أسرفوا في المعاصي صاروا كأنهم ينكرون غفران الله لذنوبهم، فنزلوا منزلة المنكرين، فأكد لهم الكلام بإن، وبقوله "جميعا" مبالغة في الوعد بالغفران ثم وصف نفسه بالمغفرة والرحمة على سبيل التأكيد أيضا.

قال أبو حيان: [1] "و أكد الجملة بإن مبالغة في الوعد بالغفران، ثم وصف نفسه بما سبق في الجملتين من الرحمة، والغفران بصفتي المبالغة، وأكد بلفظ هو المقتضى عند بعضهم الحصر".

ويدخل في هذا النوع كثير من الآيات التي تخاطب الأنبياء، والمؤمنين، ويأتي الأسلوب مؤكدا.

قال عبد القاهر[٢]

"ومن لطيف مواقعها_أي"إن"_أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه، ولكن يراد التهكم به، وأن يقال: إن حالك والذي صنعت يقتضي أن تكون قد ظننت ذلك، ومثال ذلك قول الأول[٣]:

جاء شقيق عارضا رمحه *** إن بني عمك فيهم رماح

يقول: إن مجيئه هكذا مد لا بنفسه، وبشجاعته قد وضع رمحه عرضا دليل على إعجاب شديد، وعلى اعتقاد منه، أنه لا يقوم له أحد، حتى كأن ليس مع أحد رمح يدفعه به، وكأنا كلنا عزل".

من أجل هذا خوطب خطاب المنكر، فأكد له الكلام بإن وجوبا[٤]

لما بدا عليه من أمارات الإنكار إخراجا للكلام معه على خلاف مقتضى الظاهر. وفي البيت التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن شقيقا اسم ظاهر، وهو من قبيل الغيبة، والكاف في "بني عمك" خطاب، وفيه على

---

(١) البحر المحيط، جـ٧ ص٤٣٢.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٥١.

(٣) حجل بن نضلة الباهلي.

(٤) قال ابن السبكي_معلقا على كلام الخطيب المنقول عن عبد القاهر_: وفيما قاله المصنف نظر، لأن هذا الخبر ليس فيه إلا مؤكد واحد، فمن أين لنا أنه إنكاري؟ جاز أن يكون طلبيا. جـ٢١٣ شروح التلخيص.

ما أشار إليه عبد القاهر والمرزوقي تهكم واستهزاء كأنه يرميه بأن فيه من الضعف والجبن ما لو علم معه أن في بني عمه رماحا لما التفت لفت الكفاح، ولم تقو يده على حمل الرماح على طريقة قول البراء بن عازب_ رضي الله عنه_:

فقلت لمحرز لما التقينا *** تنكب لا يقطرك الزحام

أي تجنب المعترك لا يصرعك الزحام، يرميه بأنه لم يباشر الشدائد، ولم يدفع إلى مضايق المجامع، كأنه يخاف عليه أن يداس بالقوائم، كما يخاف على الصبيان والنساء [١].

هذا خلاصة ما قيل في بلاغة "إن" من التأكيد، والتعليل، والربط، ولكن عبد القاهر ذكر لها مزايا وخصائص أخرى منها [٢]:

(١)أن لضمير الشأن معها حسنا [٣] لا يكون بدونها، قال: ومن

---

(١) انظر شروح التلخيص، جـ١ ص ٢١٢-٢١٤.

(٢) انظر دلائل الإعجاز، ص ٢٤٤-٢٤٨.

(٣) من عادة العرب أن تصدر قبل الجملة بضمير مرفوع، ويقع بعده جملة تفسره وتكون في موضع الخبر عن ذلك المضمر نحو قولك: هو زيد قائم، أي الأمر زيد قائم، وإنما يفعلون ذلك عند تفخيم الأمر وتعظيمه، وأكثر ما يقع ذلك في الخطب والمواعظ لما فيها من الوعد والوعيد، ثم تدخل العوامل على تلك القضية، فإن كان العامل النصب مثل إن وأخواتها.. كان الضمير منصوبا، وكانت علامته بارزة نحو قولك: انه زيد قائم، فتكون الهاء ضمير الشأن والحديث، وبرز لفظها، لأنها منصوبة والمنصوب يبرز لفظه، ولا يستتر قال تعالى:" وأنه لما قام عبد الله"، وربما جعلوا مكان الأمر والحديث القصة فأنثوا فيقولون: إنها قامت قال تعالى:" فإنها لا تعمى الأبصار" انظر كتب النحو وبخاصة شرح ابن يعيش، جـ٧ ص ١٠١.

خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف مالا تراه إذا هى لم تدخل عليه، بل تراه لا يصح حيث يصلح إلا بها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة:٦٣]، وقوله تعالى ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ﴾ [الأنعام:٥٤] وقوله ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] ومن ذلك قوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ [الحج:٤٦] وأجاز أبو الحسن[1] فيها وجها آخر، وهو أن يكون الضمير فى "إنها" للأبصار وأضمرت قبل الذكر على شريطة التفسير، والحاجة فى هذا الوجه أيضا إلى "إنّ" فاتمة كما كانت فى الوجه الأول، فإنه لا يقال: هى لا تعمى الأبصار، كما لا يقال: هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع.."

(٢)تهيئة النكرة وصلاحيتها لأن تكون مسنداً إليه قال:"ومما تصنعه "أنّ" فى الكلام أنك تراها تهيئ النكرة وتصلحها لأن يكون لها حكم المبتدأ، أعنى أن تكون محدثا عنها بحديث من بعدها ومثال ذلك..

إن شواء ونشوة *** وخبب البازل الأمون

قد ترى حسنها وصحة المعنى ثم أنك إن جئت بها من غير "إنّ" فقلت شواء ونشوة وهبب البازل الأمون، لم يكن كلاما، فإن كانت النكرة موصوفة، وكانت لذلك تصلح أن يبتدأ بها، فإنك تراها مع "إنّ" أحسن

---

(١) الأخفش تلميذ سيبويه

وترى المعنى حينئذ أولى بالصحة وأمكن، أفلا ترى إلى قوله:

إن دهرا يلف شملى بسعدى *** لزمان يهم بالإحسان

ليس بخفى، وإن كان يستقيم أن تقول:دهر يلف شملى بسعدى وهو صالح،أن ليس الحالان على سواء،وكذلك بخفى أنك لو عمدت إلى قوله:

إن أمرا فادحا *** عن جوابى شغلك

فأسقطت منه "إن" لعدمت منه الحسن والصلاة والتمكن الذى أنت واجده الآن، ووجدت. ضعفا وفتورا.

(٣)ومن فوائدها إذا دخلت على الجملة الابتدائية جاز الاقتصار على الاسم دون الخبر قال:"ومن تأثير "إن" فى الجملة أنها تعنى إذا كانت فيها عن الخبر فى بعض الكلام" ووضع صاحب الكتاب[١] فى ذلك بابا فقال: هذا باب ما يحسن عليه السكوت فى الأحرف الخمسة لإضمارك ما يكون مستقرا لها وموضعا لو أظهرته، وليس هذا المضمر بنفس المظهر، وذلك: إن مالا، وإن ولدا، وإن عددا " أى إن لهم مالا، فالذى أضمرت هو "لهم" ويقول الرجل: هل لكم من أحد إن الناس ألب عليكم فتقول: إن زيدا، وإن عمرا، أى لنا[٢]

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه، جـ٢ ص١٤١

(٢) قال الفراء: وإنما تحذف مثل هذا إذا كررت "إن" ليعرف أن أحدهما مخالف للآخر عندما يظنه غير مخالف، ويحكى أن أعرابيا قيل له:الزبابة الفأرة فقال: إن الزبابة، وإن الفأرة، أى هذه مخالفة لهذه، وعلى هذا صار علماء البلاغة وقالوا:يحذف المسند إذا تكررت"إن"مع اسمها اتبعا للاستعمال الوارد عن العرب مع الاختصار والاحتراز عن البعث انظر بغية الايضاح،جـ١ص١٧٣،١٧٤

وقال الأعشى:

إن محلا وإن مرتحلا *** وإن فى السفر إذ مضوا مهلا

قالوا: "وانتصب الإبل والشاء كانتصاب الفارس إذا قلت: ما فى الناس مثله فارسا. وعلق عبد القاهر على كلام سيبويه بقوله "فقد أراك فى هذا كله أن الخبر محذوف وقد ترى حسن الكلام، وصحته مع حذفه، وترك النطق به مع أنك إن عمدت إلى "إنَّ" فأسقطتها وجدت الذى كان حسن من حذف الخبر لا يحسن أو لا يسوغ، فلو قلت: مال وعدد، ومحل ومرتحل، وغيرها إبلا وشاء لم يكن شيئا ذلك أن "إنَّ" كانت السبب فى أن حسن حذف الذى حذف من الخبر، وأنها حاضنته، والمترجم عنه، والمتكفل بشأنه.

من أغراض التأكيد بـ "إنَّ" فى القرآن الكريم:

من الممكن القول: إنه لا يمكن حصر أغراض التأكيد بإن وأن فى القرآن الكريم وقد ذكرت بعض الأغراض فى ثنايا كلامى السابق، وأستطيع أن ألخص ذلك فيما يأتى:

.....

١ـ مراعاة أحوال المخاطبين:

من المتقرر لدى أهل اللغة، البلاغيين أن التأكيد حينما يرد فى الكلام البليغ، يكون وروده وفقا لحال يستدعيه، ومقام يقتضيه، ومخاطب معين يخاطب به، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون مجيئه عبثا فى الكلام،وزيادة يستغنى عنها فى الجملة، وإن خفى أمر وروده أحيانا

على من يتوقف بالكلمات عند ظاهرها، دون البحث عن المقام الذى جاءت به،والسياق الذى وردت فيه كما حدث للكندى مع أبى العباس المبرد.

وقد ورد التأكيد فى القرآن الكريم فى الموضاع التى تتطلب وروده فيها فجاء على نهج فريد فى مراعاة الأحوال والمقامات، وقد ذكرت كثيرا من الآيات التى جاء فيها التأكيد مراعيا حال المخاطب، وأزيد القارئ هنا بعض الآيات من ذلك قوله تعالى﴿: وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠]

جاء التأكيد فى قوله تعالى:"إن هدى الله هو الهدى" رداً على زعمهم الباطل أن دينهم حق وغيره باطل قال الآلوسى: [١] "قل:إن هدى الله هو الهدى" جاء على طريق الجواب لمقالتهم، ولعلهم ما قالوا ذلك إلا لزعمهم أن دينهم حق، وغيره باطل فأجيبوا بالقصر القلبى، أى دين الله -تعالى- هو الحق ودينكم هو الباطل، "وهدى الله" -تعالى- الذى هو الإسلام هو الهدى، وما يدعون إليه ليس بهدى، بل هوى، على أبلغ وجهه، لإضافة الهدى إليه تعالى، وتأكيده بإن، وإعادة الهدى فى الخبر على حد شعرى شعرى، وجعله نفس "الهدى" المصدرى وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخبر، فجاء الكلام مطابقا لأحوال المخاطبين، لأن المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض يجب أن يفحصه فحصا دقيقا، وأن يفرض له من الدواء -أو الكلام- ما يلائمه وإلا أضر به[٢]

---

(١) انظر روح المعانى، جـ١ ص١٥٣، ١٥٤

(٢) انظر الأسلوب ص٢١

وغير ذلك كثير من الآيات التى يراعى فيها القرآن الكريم أحوال المخاطبين النفسية.

٢ـ مراعاة أحوال المتكلمين:

إذا كان القرآن الكريم يؤكد الأسلوب مراعاة لحال المخاطب فإنه يؤكد -أيضا- مراعاة لحال المتكلم، لأن القرآن فى قمة البلاغة، والبلاغة كما تراعى حال المخاطب، فإنها تراعى حال المتكلم، ونفسيته والدواعى والمؤثرات التى تتوارد عليها، يقول الدكتور محمد أبو موسى [١]:"وهناك ضروب من التأكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها فى النفوس كما أحسها مقررة أكيدة.

وهذا النوع كثير فى القرآن الكريم، وقد أشرت إلى ذلك عندما تكلمت عن يعقوب -عليه السلام- وأبنائه، وقد يحمل على ذلك قوله تعالى:﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] فقد جاءت الجملة الأولى "قالوا: آمنا" فعلية دالة على الحدوث خالية من التأكيد، لأنهم بصدد دعوى إحداث الإيمان، ولم ينظروا هنا لإنكار أحد وتردده إيهاما منهم أنهم بمرتبة لا ينبغى أن يتردد فى إيمانهم ليؤكدوا.

وجاءت الجملة الثانية "إنا معكم" إسمية ثبوتية مؤكدة بإن مراعاة لحال المتكلمين، لأن التأكيد كما يكون لإزالة الشك عند المخاطب، يكون

---

(١) خصائص التراكيب، ص٥٧

لصدق الرغبة عند المتكلم، وتركه كما يكون لعدم ذلك يكون لعدم اعتناء المتكلم، فمن أجل الرغبة أكدوا، ولعدمها تركوا.

ولحظ ذلك الزمخشرى فقال: فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن ؟

قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين، وأوكدهما، لأنهم فى إدعاء حدوث الايمان منهم، ومنشئه من قبلهم، لافى ادعاء أنهم أوحديون فى الايمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية، وصدق رغبة، واعتقاده وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولون، ويطمعون فى رواجه، وهم بين ظهرانى المهاجرين والأنصار الذى مثلهم فى التوراة والانجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين "ربنا إننا آمنا"

وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على صدق رغبة ووفور نشاط، وارتياح للتكلم به، وما قالوا من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق، ومتانة للتوكيد[1]

ويمكن أن يحمل على ذلك جل ما حكاه رب العزة -جل وعلا- عن النبياء والمؤمنين متضرعين راجين داعين خالقهم كقوله تعالى﴿: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الميعَادَ﴾

---

(١) انظر الكشاف جـ١ ص٥٠، وروح المعانى جـ١ ص١٥٧، وتفسير أبى السعود جـ١ ص٨١، وحاشية الشهاب جـ١ ص٣٤٣

[آل عمران:٩] فالتأكيد هنا ليس للإنكار أو الشك، وإنما لإظهار رغبتهم فى الاستجابة قال الآلوسى[١]:"والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة، وقوة اليقين بأحوال الآخرة، ولمزيد من الرغبة فى استنزال طائر الإجابة.." ومثله قوله تعالى:"ربنا إننا آمنا فأغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار" [آل عمران:١٦] وقوله تعالى﴿: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾[آل عمران:١٩٣] وقوله تعالى -حكاية عن إبراهيم عليه السلام -﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وقوله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٧، ٣٨] فالتأكيد فى كل هذا نظر فيه لحال المتكلم، لأنه تعبير عن رغبتهم فى الاستجابة وهذا كثير فى القرآن الكريم وما ذكرته فيه الكفاية.

٣-قصد تحقيق المخبر به:

وقد يكون الغرض من التأكيد قصد تحقيق المخبر به، وتقوية مضمون الكلام عند المخاطب، وتقريره فى نفسه، وإن كان غير منكر ولا شاك كقوله تعالى﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] فالمخاطب الملائكة، وهم غير منكرين ولا شاكين فى الخبر، وإنما الغرض تحقيق المخبر به، وتثبيته، وتقريره فى أنفسهم، وكقوله تعالى﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون:١] فالمخاطب النبى ﷺ وهو لا ينكر أن الله

---

(١) روح المعانى جـ٣ ص٩١

يعلم أنه رسوله، ولا هو بموضع من ينزل منزلة المنكر وإنما جاء التأكيد للمبالغة فى تحقيق الخبر، ومن ذلك قوله تعالى﴿: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩]، وقوله تعالى﴿: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقوله تعالى﴿: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[طه:١٤] وقوله تعالى﴿: وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩١ – ١٩٢] وقوله تعالى﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠] وقوله تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ﴾ [الإنسان:٢٣] فالمخاطب فى كل هذه الآيات النبى ﷺ وهو ليس بشاك ولا منكر ولا يمكن أن ينزل منزلة الشاك أو المنكر فى هذه الآيات، وإنما الغرض من التأكيد زيادة تحقيق الخبر وتقريره، وتثبيته فى نفسه، وتقوية مضمون الكلام حتى يبلغ عين اليقين.

٤-إظهار البرهان:

وقد يكون داعى التوكيد إظهار البرهان الساطع، والدليل القاطع على صدق القضية انظر إلى قوله تعالى﴿: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين،ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [المؤمنون:١٢-١٦] يوضح الله عز وجل-

لعباده بعد بيانه لخلقهم على هذه الطريقة الدالة على القدرة التى لا يعجزها شئ أنهم ميتون لا محالة، وفى هذه المقدمة إشارة إلى صدق النتيجة وهى قوله "ثم إنكم يوم القيامة تبعثون" أى الذى خلقكم على هذه الطريقة قادر على بعثكم، فهذا دليل قاطع لا شك فيه، ولعل هذا هو السر فى تأكيد البعث بمؤكد واحد، لأن ما سبقه من مقدمات دالة على قدرة الله قد هيأت للإقناع، فلم يحتج إلى أكثر من مؤكدة ' ومثله قوله تعالى﴿: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]

"تجد الآيات الأولى تصف مراحل التكوين، وتبرز قدرة الله سبحانه من خلال هذا الوصف، ثم تقرب هذه الحقيقة بصورة حسية "وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت" وحين نتأمل المثل نجده يومئ إيماءة قريبة إلى حالة التناسل التى وصفتها الجمل السابقة، فالأرض هامدة مسترخية فإذا أنزل عليها الماء اهتزت، وصار فيها جنين النبت، ثم تربو به كما تربوا المرأة وتثقل بحملها، وبعد هذه

اللمحة الدقيقة تأتى الجمل التى كأنها المقاصد الأساسية لـــهذا اللفـــت الكاشف إلى آيات الله، وهذه المقاصد ترد هكذا، "ذلك بأن الله هو الحق -وأنه يحيى الموتى- وأنه على كل شئ قدير -وأن الســـاعة آتيـــة لا ريب فيها- وأن الله يبعث من فى القبور[١]

فهذه الجمل جاءت مؤكدة بعد تقديم ما هيأ للإقناع بها

٥-تقرير صفات الله:

وقد يكون داعى التأكيد تقرير صفات[٢] الله فى النفوس حتـــى يســـتقر الايمان بها، والمتأمل لنظم القرآن الكريم يجد هذه الصفات الكريمة قـد انتشرت فى خلال آياته على اختيار دقيق لكل منها، سواء منـــها مـــا انفرد بموضعه، أو اجتمع مع غيره.

والعز بن عبد السلام يشير إلى هذا المغزى العظيم الـــذى تذكـــر لـــه صفات الله فى كتابه فيقول:"فوصـــف نفســـه بالربوبيـــة ليشـــكروه، وبالجمال ليحبوه، وبالكبرياء ليهابوه، وبالقرب منهم ليراقبوه، وبسمة الرحمة ليرجوه، وبشدة النقمة ليخافوه، وبالعظمة ليخضعوا لعظمتـــه، وبالعزة ليتذللوا لعزته، وبالاحسان إليهم لـــيرضوا عنـــه، وبـــالإطلاع عليهم ليستحيوا منه، وبالتفرد بالإلهية لئلا يعبدوا ســـواه، وبـــالتوحد بالنفع والضر لئلا يعتمدوا إلا عليه، ولا يستندوا إلا إليه، فتجلى لـــهم بصفاته ليحثهم بمعرفتها على التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، وقـــل أن

---

(١) وقيل أسماء الله

(٢) روح المعانى جـ٣ ص٩١

توجد صفة من الصفات إلا وهى مناسبة لما قرنت به من أحكام حاثة أو زاجرة عليه [١]"

من أجل ذلك جاءت هذه الصفات مؤكدة لتقرر هذه المعانى فى النفوس، وإذا تقررت هذه المعانى في النفوس انبثق منها العمل الصالح المبنى على أساس من الايمان الصحيح، وتأكيد هذه الصفات فى القرآن الكريم كثير جدا يفوق الحصر، فنجد كثيرا من الآيات تختم بقوله تعالى:"إن الله شاكر عليم" أو "إن الله غفور رحيم" أو "إن الله بكل شئ عليم" أو "إن الله غنى حميد": أو "إن الله عزيز حكيم" أو "إن الله شديد العقاب" أو "إن الله سريع الحساب".. وغير ذلك الكثير، بل أحيانا تأتى هذه الصفات فى آيات متتالية انظر الآيات من ٥٧ – ٦٧ من سورة الحج، والآيات من ٢٦-٣٤ من سورة لقمان تجدها كلها ختمت بصفات الله ومؤكدة بإن.

٦-تحقيق الوعد والوعيد:

وقد يكون التأكيد لتحقيق الوعد أو الوعيد كقوله تعالى﴿: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً، إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ [الإنسان:٥٤]

أكد وعيده للكفار الذين أعد لهم سلاسل لأقدامهم، وأغلالا لأيديهم، ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين المذلولين، ثم يأتى

---

(١) انظر الإشارة إلى الايجاز فى بعض أنواع المجاز، ص٢٠٦ ونقول لابن عبد السلام يستحيل أن توجد صفة من الصفات إلا وهى مناسبة لما قرنت به.

بالمقابل مؤكدا ليتقرر وعده فى نفوسهم، ومنه قوله تعالى﴿: إن الأبرار لفى نعيم، وإن الفجار لفى جحيم﴾ وقوله:"إن الله يحب المتقين" "إن الله يحب المقسطين" "إن الله مع المتقين" "إن الله لا يحب الكافرين" "إن الله لا يهدى القوم الكافرين" وهو كثير فى كتاب الله-عز وجل- فمقامات الوعد والوعيد من مقامات التأكيد لتزداد النفوس به يقينا واطمئنانا. وقريب منه:

٧-الترغيب والترهيب:

ويأتى التوكيد ليرغب الناس فى فعل الخير والتوبة والرجوع إلى الله -عز وجل- كقوله تعالى ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧]

أكد بأربع مؤكدات وهى: إن، وضمير الفصل، والمبالغتان مع الصفتين له ليدل على ترغيب العبد فى التوبة، إذا علم ذلط طمع فى عفوه.(١)

ومثله قوله تعالى﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]

فالتأكيد بإن مع "المبالغة فى التواب للدلالة على كثرة من يتوب إليه من عباده، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان عفوا عنه بالتوبة، أو لأنه بليغ فى قبول التوبة، نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه(٢) وهذا مع المبالغة فى "رحيم" ترغيب لعباده بالتوبة، والرجوع إليه فهو تواب وهو رحيم.

---

(١) انظر البرهان، جـ٢ ص٣٣٩

(٢) انظر الكشاف جـ٣ ص٥٦٨

ومنه قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [النصر:٣]

فجاء هذا التأكيد ترغيبا للمؤمنين فى التوبة والرجوع إلى الله -عز وجل- وللكافرين لعلهم يقلعون عن كفرهم وغيهم وضلالهم، فهو يدعوهم جميعا إليه ليتوب عليهم إذا تابوا ورجعوا، ويدخل فى الترهيب قوله تعالى﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩] ففى الآية ترهيب وخوف ورعب وفزع، وهلع لعلهم يقلعون عما هم عليه من الكفر والفسق والفجور لذلك زاد فى التأكيد، ويقابله الترغيب والشوق قوله﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢]

٨-مجئ الكلام على خلاف ظن المتكلم:

وقد يكون داعى التأكيد الدلالة على أن المتكلم كان يظن أمراً فحدث خلافه، فيأتى بهذا التوكيد ليرد على نفسه ظنه، وكأنه يريد لهذه النفس أن يستقر فيها هذا النبأ الجديد الذى لم تكن تتوقع سواه، وكأنها تريد أن تخلى مكانا من القلب قد شغل بخاطر ليحل به خاطرا جديدا، وتأمل قوله تعالى -حكاية عن أم مريم- ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران:٣٦] فأم مريم كان الأمل يملأ قلبها فى أن تلد ذكراً نذرته لخدمة بيت المقدس ولطول ما شغلها هذا الأمل تجسم فى خيالها حتى صار كأنه حقيقة واقعة، فلما وضعت مريم فوجئت، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد فى قلبها حتى

تروض نفسها وتستسلم لما كان[1]، فقالت:"إنــى وضعتــها أنثـى" – بالتأكيد– قال الألوسى:"والتأكيد هنا قيل:للرد على اعتقادها الباطل يعود إلى الاعتناء والمبالغة فى التحسر الذى قصدته، والرمز إلى أنه صادر عن قلب كسير، وفؤاد بقيود الحرمان أسير[2] ومن ذلك قولـه تعـالى "حكاية عن نوح–عليــه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء:١١٧] فلم يكن نوح –عليه السلام– يتوقع أن يكذبه قومـه، وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى، فكان تكذيبهم صدمة له يريد أن يوطن نفسه عليها.

وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر عندما قال[3]:"قد تدخل كلمة إن للدلالـة على أن الظن كان من المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون، كقولك للشئ وهو بمرأى ومسمع من المخاطب: إنه كان مـن الأمر مـا ترى، وأحسنت إلى فلان، ثم إنه فعل جزائى ما ترى، وذكر الآيتين"

٩–الأمور الغيبية:

ويؤكد الكلام لأنه أمر غيبى، والمور الغيبية تحتاج إلى تقرير وتثبيت فى النفوس، لأنها مجهولة للناس جميعا، قال تعـالى –فـى خطابـه لموسى عليه السلام– ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه:١٥]

---

(١) انظر من بلاغة القرآن ص١٥٠

(٢) روح المعانى جـ٣ ص١٣٤

(٣) دلائل الاعجاز ص٢٥٢

الآية واردة ضمن كلام خاطب الله به موسى -عليه السلام- وليس بمعقول أن ينكر موسى قيام الساعة، أو يشك فيه حتى يؤكد له سبحانه، وإنما جاء التأكيد، لأن الأمر غيبى يحتاج إلى تقرير وتثبيت فى نفوس قارئيه وسامعيه، يقول سيد قطب، رحمه الله[١] "والله يؤكد "إن الساعة آتية" وأنه يكاد يخفيها، فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يؤكد حكمته من معرفتهم ومن جهلهم، والمجهول عنصر أساسى فى حياة البشر، وفى تكوينهم النفسى، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرور، فهم لا يدرون متى تأتى الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم "

ويدخل تحت هذا الغرض كثير من الآيات التى تخبر عن أمور غيبية، وجاءت بأسلوب التوكيد.

١٠-تأكيد الأمر المحقق:

وقد يؤكد الأمر المحقق البعيد عن التردد والإنكار لغرابة الخبر، وحرص المتكلم على أن يؤنس به نفس المخاطب، وإن كانت لا تنكره وإنما هى فى حاجة إلى ما يهيئها لقبوله، ومنه قوله تعالى﴿: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠]، فقد أكد "إنى أنا الله رب العالمين" ليؤنس نفس موسى -عليه السلام- بالخبر، ويحيط

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٤ ص٢٣٣

ما عساه يعلق بالنفس فى مثل هذا الموقف فقد انطلق -عليه السلام- ليأتى أهله بخبر أو جذوة من النار لعلهم يصطلون، وبينما هو ذاهب إلى هذا الغرض فجأة ناداه الحق سبحانه من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة، وهذا موقف غريب فاحتاج إلى التوكيد[١] ومثله قوله تعالى ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠] فالإناس محقق ومع ذلك أكده "إن" ليوطنوا أنفسهم عليه. قال الزمخشرى[٢] :"ولما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقنا حققه بكلمة "إن" ليوطن أنفسهم، ولما كان الإيتان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر فيهما على الرجاء، والطمع وقال "لعلى" ولم يقل :إنى آتيكم لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به"

ومنه قوله تعالى -يخاطب موسى أيضا، لما رأى أفاعيل السحرة،﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ قال الحق سبحانه ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه:٦٨]

فأكد بجملة من التأكيدات، ليزيل وحشة نفسه فى هذا المقام، وإن كان موسى -عليه السلام- مستوثق اليقين من وعد الله -عز وجل-

١١-العناية بإظهار المعتقد

وقد يكون التوكيد إظهارا لمعتقد النفس، وإبرازاً له لتزداد النفس يقينا به، لأن مقامها يقتضى ذلك، ومنه قوله تعالى﴿: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص٦٢

(٢) الكشاف جـ٢ ص٥٨١

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦]

فإن المصيبة قد تقلق النفس، وتهز اليقين، وعندئذ تلوذ النفس المؤمنة بكينونتها لله، ورجعتها إليه، فتعلن ذلك، وتؤكده لتثبت في مواجهة الشدة.[١]

١٢ـ بيان شعور المتكلم إزاء المخاطب

وقد يكون التأكيد لبيان شعور المتكلم من جهة أن المخاطب لا يطمئن إلى خبره كقوله تعالى -حكاية عن المنافقين- ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] فالمخاطب الرسول ﷺ لن ينكر عليهم أنهم يشهدون بأنه رسول الله، لأنه يطلع على حقيقة أمرهم إلى ذلك الوقت -أي لم يكن الله سبحانه وتعالى -قد فضحهم، وأظهر باطنهم، وكشف عن نفاقهم، ولكنهم شعروا في قرارة أنفسهم أن الرسول لا يستريح إلى إخبارهم، فأكدوا ليردوا دعوى يتوهمونها.

١٣ـ تنبيه المخاطب على أن المتكلم كاذب في دعواه:

وقد يكون الغرض: تنبيه المخاطب على أن المتكلم كاذب في إدعاء هذا الخبر على وفق اعتقاده كقوله تعالى﴿: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] فالله سبحانه يريد أن ينبه رسوله ﷺ على أن ما قاله هؤلاء المنافقون وهو " نشهد أنك لرسول الله " ليس مطابقا لأعتقادهم فحينئذ يتنبه الرسول، ويأخذ حذره منهم.

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص٦٢

هذا ما توصلت إليه من أغراض التوكيد "بإن" فى القرآن الكريم وكما قلت أولا: لا يمكن حصرها فى هذا البحث المحدود، والذى أريد أن أنبه عليه، أنه من الممكن أن نلمح فى الآية الواحدة أكثر من غرض، لأن النكات البلاغية لا تتزاحم كما يقول البلاغيون، وكما قال أبو موسى "لا ضير فيه، لأن الخصوصية البلاغية فى الكلام الممتاز صالحة، لأن تشير إلى أكثر من معنى، والمهم أن تعرف توجه خصائص الاساليب وتدرك منها مالا ينبو عن مقامها[١]

---

(١) خصائص التراكيب ص٦٤